العمـــارة الإســـلامية في العـــهد الأمـــوي

UMAYYAD ARCHITECTURE

(41-132 هـ/661-750 م)

القصـــور الأمـــوية - Umayyad Palaces

لم تكن المساجد هي المباني الوحيدة التي أنشئت في الفترة الأموية والتي وصلتنا آثارها أو أخبارها. فإلى جانب حركة بناء المساجد التي تمثل العمارة الدينية، وصلتنا أخبار قصور عديدة شيدها الأمويون تمثل الجانب المدني للعمارة. لكن القصور واستخدامها مقترن إلى حد كبير مع استمرار بانيها، فهي عكس المساجد ذات الوظيفة المستمرة، عرضة للزوال ولا سيما ضمن المدن حيث الحاجة المستمرة للأراضي المخصصة للبناء. لذلك لا نجد للقصور الأموية ضمن المدن أي أثر. ومنها مثلا قصر الخليفة معاوية في دمشق المعروف بقصر الخضراء، الذي كان مقرا للخلافة الأموية ودمر على يد العباسيين.

ولكن الفترة الأموية تميزت ببناء العديد من القصور خارج المدن وعلى أطراف البادية، التي نجد آثارها إلى اليوم في مختلف أنحاء بلاد الشام. من هذه القصور:

- في سورية: قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وقصر أسيس
- في الأردن: قصر حرانة وقصير عمرة وقصرالمشتى وقصر طوبة وقصر الموقر وقصر الحلابات
- في فلسطين: قصر هشام (خربة المفجر) وقصر المنية
- في لبنان هناك موقع أموي عبارة عن مدينة تسمى عنجر

أثار وجود هذه القصور على أطراف البادية تساؤلات كثيرة. اعتقد العلماء لفترة طويلة أن الغرض من إقامة هذه القصور هو الاستجمام والقرب من البادية لممارسة الصيد وأن الخلفاء كانوا يتوقون إلى حياة أسلافهم في البادية. ولكن الدراسات المعمقة لهذه المنشآت أدت إلى تغيير هذه النظرة. فهذه القصور لم تكن قائمة بمفردها بل كانت جزءا من نظام عمراني متكامل يضم مسجدا وخانا وحماما وقاعة للعرش وأخرى للاستقبالات الرسمية وفراغات سكنية لنزول الحاشية والجند والخدم. وكانت تضم أيضا البساتين والمراعي والسدود والأقنية، وتقوم ضمن منطقة زراعية متطورة. أي أنها كانت مركزا لمناطق واسعة يسيطر عليها الخليفة ويوطد من خلالها علاقته مع القبائل الموالية له.

أسباب تشييد القصور الأموية:

1. حرص الخلفاء على الاتصال مع القبائل العربية المؤيدة لهم، فكانت القصور مراكز لهم على أطراف البادية.
2. الاهتمام بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضي الزراعية عن طريق إنشاء السدود والأقنية.
3. تطور حياة الترف وعدم إقامة الخليفة في مكان واحد على مدار السنة، إنما احتياجه إلى مكان للاستجمام و lv;. للانطلاق إلى الصيد.

1. قصـــر حـرانة Qasr Harrana

يقع قصر حرانة في الأردن على بعد 55 كم إلى الشرق من عمان. شيد حوالي عام 710 م أيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

القصر مربع الشكل، طول ضلعه 40 م تقريبا، تحتل زواياه الأربع أبراج دائرية، بينما يتوسط الجدران الخارجية برج نصف دائري، ما عدا في الجهة الجنوبية حيث يقع مدخل القصر، الذي يتوسط برجين ربع دائريين يمتدان إلى أعلى المبنى ليربط بينهما قوس يشكل بوابة متميزة.

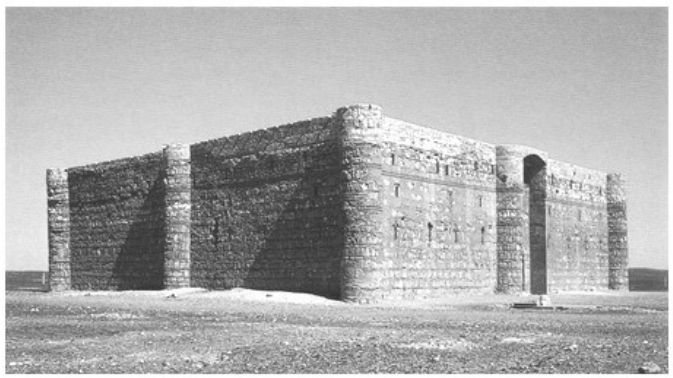

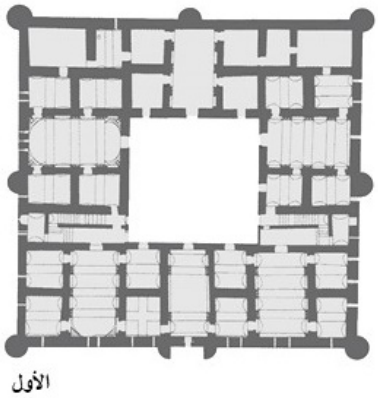

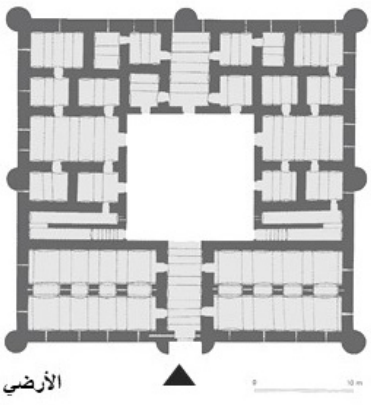

قصر حرانة: مساقط - لقطة خارجية من الجنوب الغربي - الفناء الداخلي

القصر مبني من الحجارة المنحوتة التي تتناوب مع صفوف من القرميد بعضها يشكل صفا تزيينيا. وجود نوافذ ضيقة، تشبه مرامي السهام، موزعة ضمن الجدران الخارجية يزيد في إعطاء المبنى طابع القلعة الدفاعية.

بوابة القصر تؤدي إلى فناء داخلي مربع تحيط به الإسطبلات وغرف الحرس وغيرها من الفراغات الموزعة بشكل متناظر. المبنى مؤلف من طابقين، يتم الصعود إلى الطابق العلوي عبر درجين يتم الوصول إليهما عبر الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية من الفناء. نلاحظ في المساقط تكرار مجموعة معينة من الفراغات، يتكون كل منها من فراغ مركزي كبير يحف به أربعة فراغات، اثنان من كل جانب يتم الدخول إليها من الفراغ المركزي. هذه الوحدة التي يطلق عليها "بيت" أو "**البيت السوري**" تميز القصور الأموية وتعتبر وحدة سكنية أساسية فيها.

يتميز المبنى بالحلول الإنشائية، التي تم اختيارها لسقف الفراغات المختلفة باستخدام الحجر والقرميد مادة للبناء، والتي تتكون من مجموعة من الأقواس التي تقسم الفراغات إلى مجازات أصغر يتم تغطيتها بقبوات أسطوانية.

2. قصـــير عمـــرة Qusayr ʻAmra

يقع قصير عمرة في الأردن في وادي البطم على بعد 100 كم إلى الشرق من عمان. وهو ينسب أيضا إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96 هـ/705-715 م). أطلق عليه اسم قصير لصغره بالمقارنة مع القصور الأخرى.

المبنى عبارة عن منزل مبني من الحجر المنحوت ومكون من قاعة كبيرة وحمام ملحق بها. يتم الدخول إلى القاعة المستطيلة، التي كانت تستخدم كقاعة عرش بشكل محوري من الضلع الطويل. القاعة مقسمة إلى ثلاثة مجازات، يعلو كل منها قبوة أسطوانية محمولة على الجدران الجانبية وعلى قوسين كبيرين وسطيين يستندان إلى دعائم جدارية. تتوزع مقابل المدخل ثلاث مقاصير. الوسطى مفتوحة على القاعة، يصلها بالمقصورتين الجانبيتين باب صغير. ترتبط القاعة بالحمام المكون كالمعتاد في الحمامات الرومانية من ثلاثة أقسام: البارد (البراني)، الدافئ (الوسطاني) والحار (الجواني). القسم الأخير مزود بمقصورتين ومسقوف بقبة، بينما سقف القسمين الآخرين عبارة عن قبوة أسطوانية وأخرى متصالبة. ويتصل بالحمام غرفة المرجل والوقود.

تعود شهرة هذا القصر، رغم صغره، إلى كونه لا يزال محافظا على إكسائه الداخلي ولا سيما على الرسومات الجدارية، التي تغطي القسم الأعظم من الجدران والقبوات والقباب. هذه الرسومات تعتبر ذات أهمية خاصة في دراسة الفن الإسلامي المبكر في مجال التصوير. فمن اللافت للنظر أن مواضيع اللوحات لا تتجنب تصوير الأشخاص، كما في المباني الدينية، بل على العكس. إذ نجد مشاهد الصيد والموسيقى ومشاهد لراقصات بالإضافة إلى لوحة شهيرة موجودة في قاعة العرش تمثل الوليد مع الملوك الذين انتصر عليهم المسلمون من أمثال كسرى وقيصر والنجاشي وملك الإسبان رودريك يقدمون الولاء للخليفة وفق التقاليد البيزنطية.

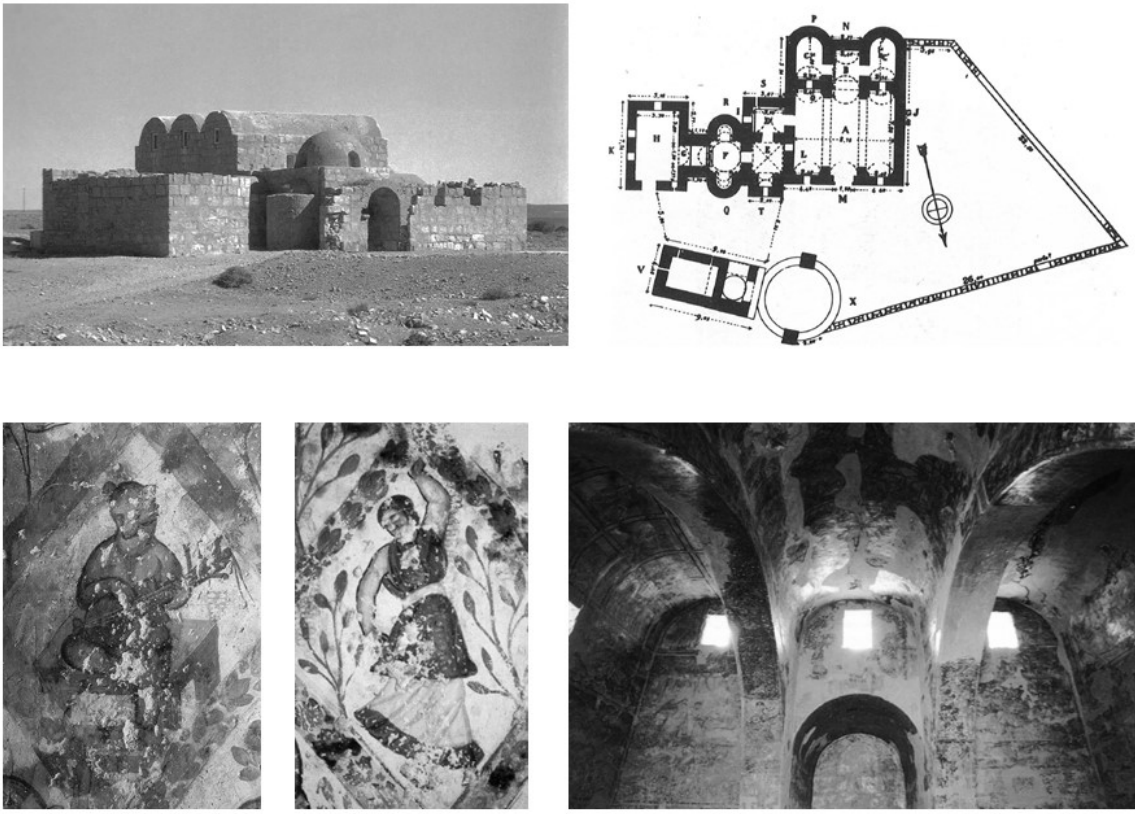

قصير عمرة: مسقط - واجهة غربية - قاعة العرش - بعض الرسومات الجدارية

3. قصـر الحيـر الغـــربي Qasr al-Hir al-Gharbi

يقع قصر الحير الغربي في بادية الشام إلى الجنوب الغربي من تدمر. شيد في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105-125 هـ/724-743 م). بني القصر في بقعة خصبة جلبت إليها المياه من موقع يدعى "خربقة" أقيم فيه سد حجري، وعثر حوله على آثار لحمام وطاحون وبساتين واسعة محاطة بسور من اللبن.

القصر ذو مسقط مربع، طول ضلعه 70 م، وهو محاط بسور مرتفع مزود بالأبراج نصف الدائرية في الأضلاع والدائرية تقريبا في الزوايا، ما عدا الزاوية الشمالية الغربية التي يشغلها برج قديم لمبنى غساني. بوابة القصر تنفتح في منتصف الضلع الشرقي بين برجين نصف دائريين ينتهيان بشرافات مثلثة. البوابة تؤدي إلى دهليز يفضي إلى الفناء الداخلي المربع الذي يتوسط القصر. الفناء محاط في الطابقين برواق يتم الدخول منه إلى ست وحدات سكنية مستقلة من نموذج "البيت سوري" موزعة بشكل متناظر، يتوسط كل منها قاعة.

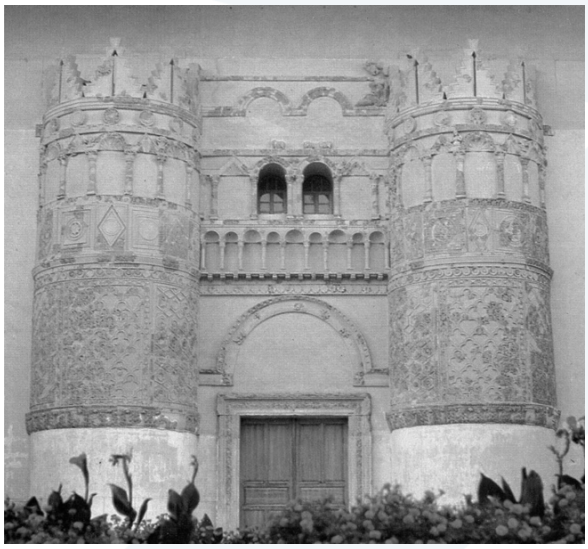

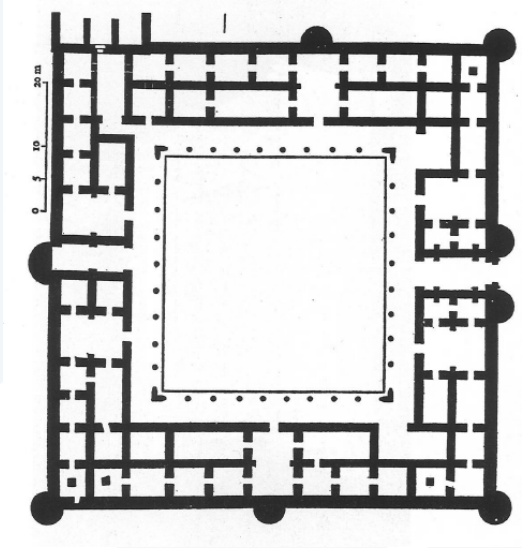

قصر الحير الغربي: مسقط الطابق الأرضي - واجهة المدخل المعاد بناؤها ضمن المتحف الوطني في دمشق

القصر مبني في جزئه السفلي من الحجر المنحوت ثم يستمر نحو الأعلى بالقرميد. جرى الكشف عن معالم القصر في فترة الانتداب الفرنسي بين عامي 1936-1938. ونقلت أجزاء من بوابة القصر وعناصرها المعمارية والزخرفية إلى متحف دمشق الوطني، الذي كان قيد الإنشاء في هذه الفترة. وتمت إعادة بناء الفراغات المحيطة بالبوابة داخل المتحف حيث تستخدم كقاعات للعرض.

تشكل الزخارف الجصية العنصر التزييني الأساسي في الداخل والخارج. وتعتمد الزخارف الهندسية والنباتية، مثل عروق الكرمة وسعف النخيل والأزهار، كما نجد محاريب وشرافات مثلثة متدرجة تشكل النهاية العلوية للبرجين نصف الدائريين للبوابة. ويشكل الجص درابزينات الطابق العلوي والشبك الذي يسد النوافذ التي تعلو الأبواب المطلة على الفناء. كما يلفت النظر تزيين المبنى من الداخل بلوحات جدارية وزخارف جصية تضم تجسيدا للإنسان والحيوان وكلها اليوم معروضة في المتحف الوطني في دمشق.

4. قصـــر الحيـــر الشـــرقي Qasr al-Hir as-Sharqi

هناك منشآت أخرى في بادية الشام معروفة بقصر الحير الشرقي تقع إلى الشمال الشرقي من تدمر على مسافة 100 كم تقريبا. وهي تعود إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك في حوالي عام 110 هـ.

تتكون آثار الموقع من مجموعة من المباني تضم قصرا صغيرا وآخر كبيرا، يبعدان عن بعضهما مسافة 42 م. كلا المبنيين مربع الشكل، الصغير طول ضلعه 70 م والكبير طول ضلعه 160 م. وهما محاطان بأسوار مدعمة بالأبراج نصف

الدائرية والدائرية تقريبا في الزوايا. يعتقد البعض أن ما يسمى القصر الصغير لم يكن قصرا وإنما خانا ولكن المرجح أنه كان قصرا للخليفة. تتميز البوابة بوجود سقاطة لأغراض دفاعية فوق الباب.

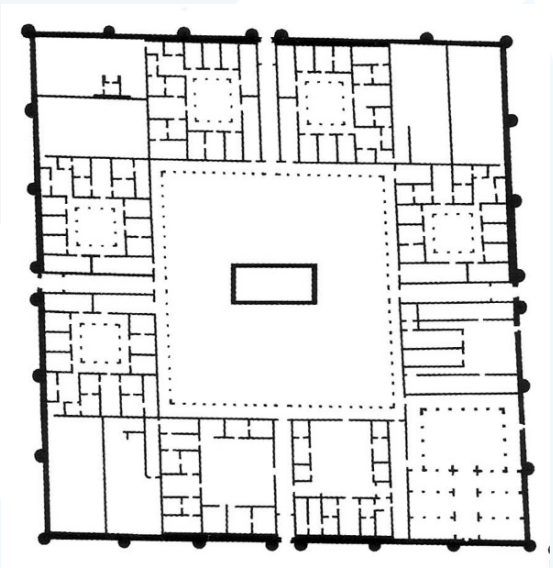

قصر الحير الشرقي: مسقط الطابق الأرضي للقصر الكبير - صورة جوية للموقع - الواجهة الغربية للقصر الصغير

القصر الكبير أشبه بمدينة صغيرة قرب قصر الخليفة معدة لإقامة الحاشية. للمبنى أربع بوابات تقع في منتصف الأضلاع. البوابات تؤدي عبر ممرات طويلة وضيقة إلى فناء مركزي كبير محاط برواق. تتوزع حوله بيوت مستقلة تحيط بأفنية داخلية تنفتح عليها وحدات سكنية على شكل "بيت سوري" في إحدى الجهات. كما نجد مسجدا في الزاوية الجنوبية الشرقية من المبنى يعتبر نموذجا مصغرا للجامع الأموي في دمشق، فهو يتألف من حرم وصحن محاط بالأروقة. الاختلاف هو بكون المئذنة منفصلة عن المبنى، فهي برج مستقل، مربع الشكل، يقع بين القصرين.

5. قصـــر المشـــتى Qasr al-Mushatta

قصر المشتى يعتبر من آخر القصور الأموية. فقد شيد في نهاية الفترة الأموية حوالي عام 750 م في زمن الخليفة الوليد الثاني ولم يتم الانتهاء من بنائه ولم يستخدم، رغم تميزه، لأن السلالة الأموية زالت.

يقع القصر في الأردن على بعد 25 كم إلى الجنوب من عمان. مسقطه مربع، طول ضلعه 150م، سوره مزود بالأبراج الدائرية ونصف الدائرية. بوابة القصر تقع في منتصف الجهة الجنوبية ويحف بها برجان مضلعان، يمتازان بزخارفهما الحجرية الرائعة.

بناء القصر لم يكتمل، ضمن السور نجد المسقط مقسما إلى ثلاثة قطاعات، لم يبن إلا الأوسط منها. هذا القطاع مقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام. فهو يضم فناء مركزيا مربع الشكل إضافة إلى مجموعتين من المباني تمتدان شمال وجنوب الفناء. القسم الجنوبي يقع خلف البوابة مباشرة ويتألف من دهليز يؤدي إلى فناء مستطيل، حوله مجموعة قاعات وغرف، إلى الشرق من المدخل نجد مسجدا صغيرا.

أما الجناح الشمالي فهو مقسم بدوره إلى ثلاثة أجزاء، حيث يطل على الفناء ببوابة فخمة مؤلفة من ثلاث فتحات، تؤدي إلى ثلاثة دهاليز. الأوسط، وهو الأوسع، يفضي إلى قاعة العرش، التي تتميز بمسقطها المحاط من ثلاث جهات بالمحاريب، التي تتوزع بينها غرف صغيرة. بينما يؤدي الدهليزان الجانبيان إلى فناءين تابعين لبيتين مستقلين، كل منهما مؤلف بدوره من جناح شمالي وآخر جنوبي، مسقط كل منهما عبارة عن بيت سوري.

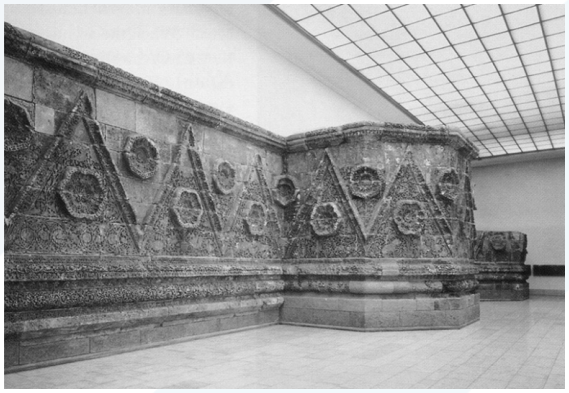

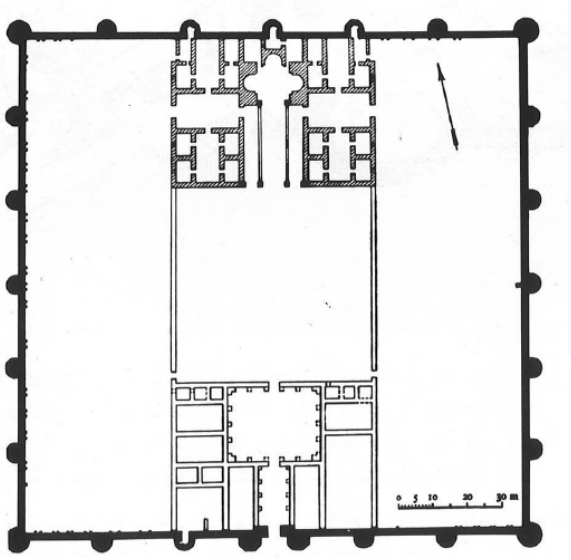

قصر المشتى: مسقط - واجهة الدخول التي تم نقلها إلى المتحف الإسلامي في برلين

إنشاء القصر يعتمد على الدمج المتقن بين مواد البناء المختلفة، فالجدران مبنية من القرميد، أما الدعامات والأعمدة فمن الحجارة المنحوتة بإتقان والمزينة بتيجان مميزة.

نقلت بوابة القصر الحجرية في نهاية العهد العثماني إلى برلين حيث أهداها السلطان عبد الحميد للامبراطور الألماني غيليوم، وهي تشكل إلى اليوم أهم معروضات المتحف الإسلامي. الزخارف الحجرية المتقنة تشكل شريطا زخرفيا على شكل مسننات يغطي القسم السفلي من الواجهة تتخلله زهرات دائرية. الزخارف لا تمثل فقط مواضيعا نباتية وإنما تتخللها أنواع من الطيور والحيوانات، مما يذكر بأن إحدى وظائف هذه القصور أن تكون مركزا للانطلاق للصيد.

6. خربــة المفجــر Khirbat al-Mafjar

تقع خربة المفجر المعروفة أيضا بقصر هشام قرب مدينة أريحا في فلسطين. وهو ينسب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك رغم عدم إثبات ذلك إلى الآن. القصر من أكثر المواقع الأموية فخامة وهو عبارة عن مجمع معماري يضم قصرا وحماما كبيرا ومسجدا.

يتقدم المجموعة باحة واسعة تتوسطها بركة مربعة يعلوها شادروان مثمن (قبة). أما القصر فهو على شاكلة القصور الأموية. وهو يشغل الجهة الجنوبية من المجمع ويعد أقدم أجزائه. مسقطه مربع، طول ضلعه 60 م تقريبا، تتوزع على جدرانه الخارجية الأبراج الدائرية ونصف الدائرية. القصر مؤلف من طابقين يتوسطه فناء محاط برواق يؤدي إلى القاعات والفراغات المختلفة، منها قاعة للعرش وتوابعها في الغرب. للقصر بوابة رئيسة تنفتح في الشرق على الباحة الخارجية وعلى جانبيها رواقان تنفتح عليهما بعض الغرف.

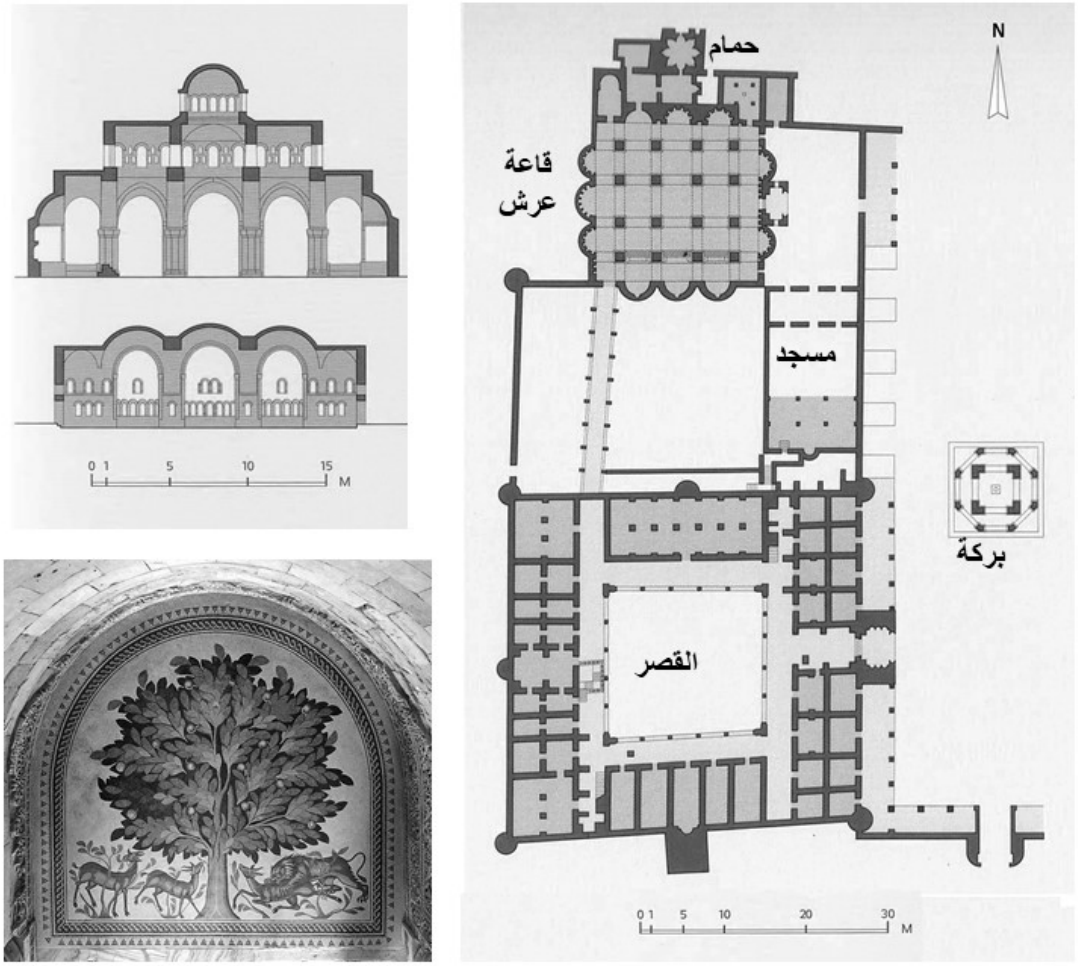

خربة المفجر: مسقط - مقطع طولي وعرضي في قاعة العرش - الفسيفساء في مقصورة الخليفة

يمتد إلى الشمال من القصر فناء آخر يحده من الشرق مسجد. ويشغل الحمام القسم الشمالي من المجمع ويرتبط مع القصر بممر مسقوف. يتألف الحمام، الذي تهدم القسم الأعظم منه، من قاعة واسعة سقفها محمول على 16 دعامة تقسمها إلى خمسة مجازات في كل جهة تنتهي الثلاثة الوسطى منها في كل جهة على شكل محراب. طريقة تسقيف القاعة غير مؤكدة ولكن يتوقع أنها كانت عبارة عن قبوات أسطوانية يزيد ارتفاعها بالانتقال إلى المجازات الوسطى وتتوجها في الوسط قبة. تتميز القاعة بأرضيتها المغطاة بلوحات الفسيفساء الحجرية. شمال القاعة تقع مقصورة الخليفة إضافة إلى حمام صغير يضم أجزاء الحمام التقليدية. تتميز مقصورة الخليفة بأرضية من الفسيفساء هي عبارة عن لوحة شهيرة تمثل مشهدا لأسود وغزلان تحت شجرة فاكهة كبيرة.

7. عنجـــــر Anjar

يقع موقع عنجر في سهل البقاع في لبنان بالقرب من الحدود السورية. أصل التسمية عين الجر. تنسب المدينة إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث عثر فيها على حجر يحمل اسمه، ومن المرجح أن الخليفة كان يقيم فيها صيفا.

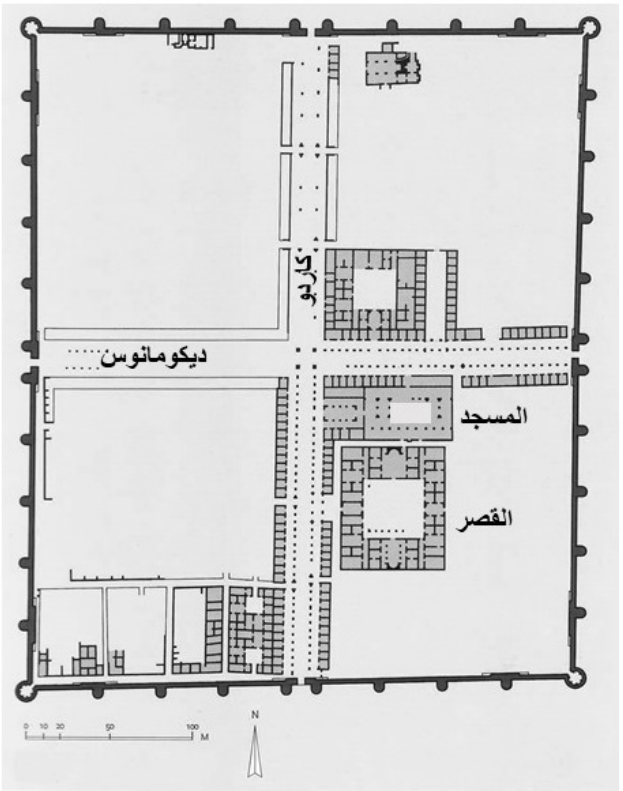

عنجر: مخطط المدينة - آثار القصر

المدينة مستطيلة الشكل أبعادها 400 × 320 م محاطة بسور ذي أبراج دائرية في الزوايا ونصف دائرية على الأضلاع. مخطط المدينة يتبع نظم التخطيط الرومانية. للمدينة أربع بوابات تتوسط أضلاع الأسوار وتؤدي إلى الشارعين الرئيسين المتعامدين، أحدهما يمتد من الشرق إلى الغرب يدعى "ديكومانوس" والآخر يمتد من الشمال إلى الجنوب يدعى "كاردو". تحف بهذين الشارعين الأروقة، كما في المدن الرومانية، وهي تتقاطع في وسط المدينة مشكلة ما يسمى بالترابيل Tetrapylon وهو نصب مكون من أربعة أعمدة. تقوم خلف الأروقة المحلات التجارية والأسواق والمباني المختلفة، من بينها المسجد والقصر وبالقرب من السور وجد حمامان.

القصر يقع جنوب المسجد تماما ليتمكن الخليفة من الوصول بسهولة إلى حرم الجامع عبر باب الزيادة المفتوح في جدار القبلة. مسقط القصر يتكون كالمعتاد من فناء داخلي محاط برواق، تحيط به القاعات والفراغات المختلفة مسقطها وفق مبدأ البيت السوري. ونلاحظ وجود قاعتين متقابلتين في الشمال والجنوب، تنتهي كل منهما بحنية تشبه المحراب وقد خصصت هاتان القاعتان لمجلس الخليفة، ما يسمى الديوان أو قاعة العرش.

أما مواد البناء وطريقة الإنشاء فاتبعت تقليدا بيزنطيا وهو استخدام الحجر المنحوت والقرميد على شكل مداميك متناوبة. بينما نجد أن الأعمدة وتيجانها معادة الاستعمال على الأغلب وتعود إلى أبنية رومانية وبيزنطية أقدم عهدا. ولا تزال أعمال التنقيب مستمرة إلى الآن وقد تم الكشف في الجنوب الغربي للمدينة عن مساكن أموية مغلقة نحو الخارج ومفتوحة نحو الداخل على فناء داخلي تحيط به فراغات البيت المختلفة. اللافت للنظر هو المدخل الذي ينفتح على الفناء الداخلي بشكل محوري ومباشر، على عكس ما هو مألوف في كثير من بيوت الفترات اللاحقة (المدخل المنكسر). أما الفراغات السكنية المحيطة فهي مشكلة في جهتين من الفناء وفق نموذج البيت السوري، كما في القصور المختلفة والمؤلف من فراغ مركزي عميق يمتد من الفناء إلى الحدود الخارجية للمسكن ويحف به من الطرفين فراغان سكنيان مربعا الشكل يتم الوصول إليهما عبر الفراغ المركزي.

الخـــلاصـــــة:

الصفات العـــامة للقصـــور الأمـــويـة

1. **التصميم**: نجد أن القصر الأموي يشبه الحصن بسوره المربع الشكل المرتفع المزود بالأبراج الدائرية في الزوايا ونصف الدائرية في الأضلاع والخالي من الفتحات. يتوسط القصر من الداخل فناء واسع مربع الشكل محاط بالأروقة، التي تتقدم مجموعة من الوحدات السكنية (البيت السوري) المؤلفة من قاعة مستطيلة يحف بها من الجانبين الطويلين غرفتان من كل جهة. تتميز إحدى هذه الوحدات لتضم قاعة العرش. يضم القصر في كثير من الأحيان مسجدا وحماما.

2. **مواد البناء**: شيدت القصور الأموية في بلاد الشام الغنية بالمقالع الحجرية، وبالتالي فمادة البناء الأساسية كانت الحجر بالإضافة إلى القرميد واللبن والجص.

3. **العناصر المعمارية**: نجد الأعمدة الرخامية والحجرية، والدعائم الحجرية أو القرميدية. الأقواس نصف الدائرية وحدوية. واستخدمت الأسقف الخشبية المستوية والقبوات بأنواعها المتصالبة والأسطوانية وأحيانا القباب.

4. **العناصر الزخرفية**: استخدمت الفسيفساء الحجرية في الأرضيات والرخام في إكساء القسم السفلي من الجدران والرسوم الجدارية بالإضافة إلى الزخارف والنقوش الحجرية والجصية المتقنة، ونلاحظ أنه لم يتم الابتعاد عن تصوير وتجسيد الإنسان والحيوان على عكس ما كان متبعا في المباني الدينية.